

أحداث دمشق

مجزرة عام 1860

وتشكّل الشرق الأوسط الحديث

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمانة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديدة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالاقتدار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

أحداث دمشق
مجزرة عام 1860
وتشكُّل الشَّرقِ الأوسط الحديث

يوجين روغان

ترجمة
أحمد العدوي

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

روغان، يوجين

أحداث دمشق: مجزرة عام 1860 وتشكل الشرق الأوسط الحديث/ يوجين روغان؛ ترجمة أحمد العدوي.

407 صفحة: إيضاحات؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على بيبليوغرافية (صفحات 381-391) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-760-3

1. سوريا - تاريخ - العصر العثماني، 1516-1920. 2. دمشق (سوريا) - تاريخ - العصر العثماني، 1516-1920. 3. دمشق (سوريا) - أحوال اجتماعية - العصر العثماني، 1516-1920. 4. الطائفية - دمشق (سوريا) - تاريخ - العصر العثماني، 1516-1920. 5. الإسلام والمسيحية - دمشق (سوريا) - تاريخ - العصر العثماني، 1516-1920. 6. المسيحيون - دمشق (سوريا) - تاريخ - العصر العثماني، 1516-1920. أ. العدوي، أحمد (مترجم). ب. العنوان. ج. السلسلة.

956.9103

هذه ترجمة مأذون بها حصرياً من الناشر لكتاب

The Damascus Events: The 1860 Massacre and the Making of the Modern Middle East

by Eugene Rogan

Copyright © Eugene Rogan, 2024

عن دار النشر

Felicity Bryan Associates Limited

First published in the US by Basic Books, an imprint of Hachette Book Group Inc. 2024

First published in Great Britain by Allen Lane 2024.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



شارع الطرفة - منطقة 70

وادي البنات - ص. ب: 10277 - الطعائن، قطر

هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174

ص. ب: 11 4965 رياض الصلح بيروت 1107 2180 لبنان

هاتف: 00961 1 991837 8 فاكس: 00961 1991839

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، أيلول/ سبتمبر 2026

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى

نيري توي وودز (Ngaire Tui Woods)



المحتويات

9	مقدمة المترجم
17	مقدمة المؤلف للطبعة العربية
25	شكر وتقدير
	ملحوظات في شأن الوقت والمسافات والتواريخ
29	وأسعار صرف العملة المذكورة في هذا الكتاب
37	مقدمة: خبيئة دار المحفوظات الوطنية
	الفصل الأول: الدكتور مشاقة، أول نائب
53	لقنصل الولايات المتحدة في دمشق
79	الفصل الثاني: دمشق "الفيحاء" في منتصف القرن التاسع عشر
107	الفصل الثالث: مقاومة الرعية للإصلاحات العثمانية
135	الفصل الرابع: أنهار الدم تفيض في جبل لبنان
167	الفصل الخامس: انهَبُوا واقتُلُوا واحرقوا!
205	الفصل السادس: معاقبة المذنبين واستعادة النظام
233	الفصل السابع: خنافس وعقارب

269	 الفصل الثامن: إعادة إعمار دمشق بأموال من شجرا!
299	 الفصل التاسع: تعافي دمشق
329	 خاتمة: الدكتور مشاققة يتقاعد لكتابة مذكراته
353	 ثبت المصطلحات
359	 ثبت الأعلام
363	 ملحق الصور
381	 المراجع
393	 فهرس عام

مقدمة المترجم

يُعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي عالجت "أحداث دمشق"، بل إن أسباب تلك الأهمية نفسها تكاد تضعه في مقدمتها، وأولها أن صاحبه عاود مصدرًا جديدًا معاصرًا للأحداث، لم يعاوده أحد من قبله. وأعاد كتابة تاريخ أحداث دمشق في ضوءه؛ وثانيها أنه يخلص إلى أن أحداث عام 1860 شكّلت مطلع حقبة التاريخ الحديث لسورية ولبنان، وهما دولتان محوريتان في الشرق الأوسط. وأما ثالثها، فهو أنه لا يقتصر على معالجة الأحداث وأسبابها ونتائجها، وإنما يدرس تبعاتها في مرحلة إعادة الإعمار، والتدابير التي أفضت إلى إعادة استيعاب المسيحيين في نسيج مجتمع دمشق مجددًا. ويخلص المؤلف إلى أن جهد الولاة العثمانيين في مرحلة ما بعد الأحداث - وهي مرحلة لم تحظَ باهتمام الدارسين غالبًا - بنجاحها وإخفاقها، يُعد نموذجًا يُحتذى به للمجتمعات التي تمر بطور النقاها والتعافي بعد الفتن الكبرى.

اعتمد المؤلف في ثنايا تأريخه لـ "أحداث دمشق" على مصدر جديد معاصر لها، هو مراسلات نائب القنصل الأميركي ميخائيل مشاقة بدمشق إلى القنصل الأميركي العام في بيروت جيرمايا أوغسطس جونسون (Jeremiah Augustus Johnson). وروى المؤلف في مقدمته لهذا الكتاب قصة عثوره على هذه السجلات التي كان يُظن أنها مفقودة.

كان ميخائيل مشاقة من شهود العيان الرئيسيين على أحداث دمشق، وكاد يُقتل فيها، وعدَّ نجاته وأسرته من هذه الأهوال في عداد المعجزات. ويساهم هذا الكتاب في وضع شهادة مشاقة على أحداث عصره في سياقها التاريخي إلى حد كبير. فمن المعروف أن مشاقة أودع تجربته وشهادته على أحداث دمشق في كتابه المسمّى الجواب على اقتراح الأحياب. ومع ذلك، فإن شهادته هناك جاءت مبهمة، وغامضة،

ومشوّشة. ولقد قيل عن لسان الرجل ما لم يُقله، حيث لم يُنشر كتاب الجواب نشرة علمية محقّقة حتى يوم الناس هذا. وعلى هذا النحو، استمر الناس في تداول كتاب الجواب مخطوطاً عُقب وفاة مؤلفه حتى قرر ملحم خليل عبّو وأندراوس حنا شخاشيري طباعة الكتاب، فنشر كلاهما كتاباً سَمّياه مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، وأضافا تحت هذا العنوان عبارة تنسبه إلى ميخائيل مشاقة مباشرة بقولهما "جامع حوادثه الدكتور ميخائيل مشاقة". وقد طُبِع هذا الكتاب في مصر في عام 1908، ولا يُعرَف شيء عن المخطوط الذي اتخذاه أصلاً في إخراج هذا الكتاب - مثله في ذلك مثل الكتب التي طُبعت استناداً إلى مخطوطات تلك الحقبة - وذكرنا في مقدمتهما لهذه النشرة أنهما لم يتدخلا إلا لتقويم عبارة المؤلف، وتصحيح لغته. بيد أنه سرعان ما تبيّن أن صنيعهما تجاوز ذلك إلى التدخل حذفاً وإضافة؛ حتى إن أسد رستم علّق قائلاً: "وحبذا لو أن السيدين المذكورين، لم يُثبِتَا في ديباجة هذا الكتاب عبارة: جامع حوادثه الدكتور ميخائيل مشاقة".

ثم نشر أسد رستم وصبحي أبو شقرا منتخبات من الجواب على اقتراح الأحاب، وظهرت هذه النشرة في بيروت في عام 1955. بيد أنهما ارتأيا حذف كل ما تعلّق بالفتنة الطائفية في بلاد الشام. وما زالت أسباب رستم وأبو شقرا مبهمة، ولم يتحدثا عنها في مقدمتهما قط. ويظن روغان أنهما أرادا بذلك تجنب إثارة غضب الرقيب اللبناني. ربما، ومع ذلك أظن أن مشروع رستم وأبو شقرا كان تحقيق نص الجواب في نشرة علمية؛ إذ إن إحصاء نُسخ الكتاب الخطية، فضلاً عن الملحوظات الكوديكولوجية (codicology) [المتعلقة بالمخطوطات] في آخر مقدمتهما لكتاب منتخبات من الجواب دليل على ذلك.

وعلى الرغم من أن روغان اعتمد على الترجمة الإنكليزية لكتاب الجواب (استناداً إلى مخطوطة الجامعة الأميركية في بيروت) - وقد ذكر أن صدور هذه الترجمة هو ما ألهمه البحث عن مراسلات مشاقة القنصلية - فإنه عوّل على تقارير مشاقة القنصلية، وهي تقارير رسمية بعث بها بوصفه نائباً للقنصل إلى رئيسه القنصل الأميركي العام في بيروت في المقام الأول. وذهب المؤلف إلى أن هذه التقارير تفوق في القيمة شهادة مشاقة التي دوّنها في الجواب من زاويتين: أولاً، أنها كُتبت في التو واللحظة، فعكست بذلك نمط تفكير شخص لم يكن له علم الغيب،

وعبرَ فيها عن آراء، ومخاوف، وانطباعات، وآمال هي بنت اللحظة. زد على ذلك أن تقاريره تحتوي أقدم رواية معروفة وصفت ما جرى خلال أحداث دمشق. تختلف هذه الشهادة عن شهادة مشاققة نفسه في الجواب، من حيث خلوها من العيوب التي تعتري استدعاء الذكريات من الذهن، وتدوينها بعد حين (دَوْنِ مشاققة كتابه بعد 13 عامًا من وقوع الأحداث)، ولا سيما إسقاط الحكمة بأثر رجعي على النظرة إلى الأحداث التاريخية، وتحليلها.

أما الزاوية الثانية، فإن أهمية وثائق مشاققة القنصلية تنبع من رصدتها الأحداث في المرحلة الانتقالية بين أحداث عام 1860، وإعادة إعمار حارة النصارى، ثم المراحل التي مر بها ترميم مجتمع دمشق، وإعادة استيعاب المسيحيين في نسيجه مجددًا، على نحو دقيق. فلا يكاد يخلو أسبوع من رسالة أو أكثر بعث بها ميخائيل مشاققة إلى القنصل العام في بيروت، مبلغًا إياه بما استجد على أهل دمشق وحكومتها، منذ آخر رسالة بعث بها إليه. فإذا أخذنا في الاعتبار أن مشاققة لم يكن مجرد موظفٍ في السلك القنصلي، وإنما كان مثقفًا، ومفكرًا، ومؤرخًا، فإن هذا يزيد من قيمة هذه التقارير التي كان يبعث بها إلى رئيسه على نحو منتظم. وبطبيعة الحال، لا وجود لمثل هذه المعلومات القيّمة في الجواب. وعلى هذا النحو، تُلقَى مراسلات مشاققة القنصلية مزيدًا من الضوء على طبيعة هذه المرحلة، والسياسات التي اتّبعها فؤاد باشا وخلفاؤه من الولاة العثمانيين على دمشق؛ حتى إن المؤلف تمكّن - في ضوء هذه الوثائق - من التعرف إلى المراحل الدقيقة التي مرت بها آراء مشاققة وأفكاره في شأن الفتنة الطائفية منذ أن اندلعت حتى دَوْنِها في الجواب تدوينًا واضحًا.

تجدد الإشارة إلى أن هذا الكتاب نُشر بعنوانين مختلفين، لآزدواج طبعته الأولى التي صدرت في بريطانيا والولايات المتحدة في الوقت نفسه. هكذا حملت النسخة الأميركية من الكتاب عنوان *The Damascus Events: The 1860 Massacre and the Making of the Modern Middle East* (وهو العنوان الذي صدرت به هذه الترجمة)، بينما حملت النسخة البريطانية عنوان *The Damascus Events: The 1860 Massacre and the Destruction of the Old Ottoman World*. وقد نلاحظ أن العنوانين كليهما يدوران حول بدء حقبة التاريخ الحديث في الشرق الأوسط، وإن كان الأول صريحًا، والثاني مضمّنًا. ومع ذلك، تُلقَى ظاهرة اختلاف عنوان الكتاب نفسه في بلدين مختلفين

بصيصاً من الضوء على مفهوم "الشرق الأوسط"، واهتمامات القراء في كلا البلدين. اختارت دار النشر الأميركية بازيك بوكز (Basic Books) العنوان الفرعي: معجزة 1860 وتَشكُّل الشرق الأوسط الحديث. ومن الواضح أنها وجدت اصطلاح "الشرق الأوسط" أكثر جاذبية للقراء الأميركيين. وأمّا الناشر البريطاني بنغوين (Penguin)، فوجد أن ربط عنوان الكتاب بالتاريخ العثماني يُساهم في ترويج الكتاب من جهة، ويتجنب الإشكالات التي ينطوي عليها مصطلح "الشرق الأوسط" الجيوسياسي والفضفاض من جهة أخرى. ومع ذلك، فقد يُختزل الفرق بين العنوانين في أن العنوان الأميركي يميل إلى ربط الكتاب بالحاضر، بينما يتطلع العنوان البريطاني إلى التاريخ. يبدو الأمر، من إحدى الزوايا، كأنه اختلاف بين إمبراطوريتين: إحداهما لَمَّا تزل قائمة مهممة، والأخرى "غربت عنها الشمس"، ولم يعد الحاضر يعينها بقدر ما يعينها الماضي التليد.

عُرِفَ يوجين روغان بنزعتة إلى إعادة قراءة التاريخ من خلال مصادر جديدة، لم يُعاودها أحدٌ من الباحثين من قبله. وعُرِفَ أيضًا ببلاغته وفصاحته وبحيوية وصفه الأحداث في ثنايا سرده، حتى يكاد القارئ يراها رأي العين. وإجمالاً فهو مؤرِّخٌ بالتخصص، وأديبٌ بالفطرة.

إذا بدا روغان بليغاً، فصيح العبارة في أعماله السابقة، فإنه تَفَوَّقَ على نفسه في هذا الكتاب؛ إذ لا تكمن براعته في البلاغة، أو فصاحة العبارة فحسب، بل في بنية السرد في هذا الكتاب التي بدت لي أشبه ببنية الروايات الأدبية، مع التمسك في الوقت نفسه بتقاليد الكتابة التاريخية الصارمة. فعندما قرأتُ الكتاب، أول مرة، - قبل أن أشرع في ترجمته - بدت لي الخاتمة غريبة عن الكتاب. ودفعني هذه الملحوظة إلى إعادة تَصْفُحِ الكتاب، والتأمل في عناوين فصوله. وسرعان ما وقفتُ على السبب الكامن خلف هذا الانطباع؛ إذ سرد المؤلف الأحداث بأسلوب الراوي العليم، في إطار سردي مُحكَّم، جاء أشبه ببنية الرواية الأدبية، بدءاً من الاستهلال (الفصلان الأول والثاني)، ثم تصاعد الأحداث (الفصلان الثالث والرابع)، ثم العقدة (الفصل الخامس)، ثم الحلول (الفصول: السادس والسابع والثامن)، ثم النهاية السعيدة (الفصل التاسع). لهذا السبب بدت لي الخاتمة غريبة مقحمة على نص الكتاب، على الرغم من ارتباطها الوثيق بموضوعه؛ إذ لم تكن ببساطة تنتمي إلى هذا البناء السردي المُحكَّم.

كان التحدي الأول الذي واجهته في أثناء ترجمتي هذا الكتاب كثرة النصوص العربية المترجمة إلى الإنكليزية في الأصل الإنكليزي للكتاب، ولا سيما تلك المقتبسة من مراسلات مشاقة الدبلوماسية. وجلها كُتِبَ بالعربية، بخط مشاقة نفسه الذي لم يكن يعرف لغة أخرى، وبعضها بخط ولده ناصيف مشاقة (باللغات: العربية، والإنكليزية، والفرنسية). وبأدب المؤلف مشكوراً بإمدادي بالمجلدات الثلاثة الأولى لمراسلات نيابة القنصلية في دمشق التي عثر عليها في دار المحفوظات الوطنية الأميركية. ولم يقف تعاون المؤلف معي عند هذا الحد، وإنما أمدني بصور للمخطوطات النادرة التي اعتمد عليها في أثناء إعداد هذا الكتاب أيضاً، وبذل وسعه في ذلك، حتى إنه تَوَسَّط لي عند مكتبة مركز الشرق الأوسط بكلية سانت أنطوني في أكسفورد، كي أطلع على مذكرات صالح التل.

ومع ذلك ظلت مشكلة نقولات المؤلف من كتاب الجواب على اقتراح الأحياب لميخائيل مشاقة ماثلة. بادئ ذي بدء، اعتمد المؤلف، كما ذكرنا آنفاً، في نقولاته من هذا الكتاب على الترجمة الإنكليزية لها التي أعدها ويلر ثاكستون ونشرها بعنوان: القتل، والتدمير، والسلب، والنهب (Murder, Mayhem, Pillage, and Plunder). اعتمد فيها، بدوره، على مخطوطة مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت. لم يُعاود المؤلف نص المخطوطة العربية نفسها. وعلى الرغم من ذلك، بذل المؤلف وسعه لإمدادي بنسخة من هذه المخطوطة، لكن جهده في هذا الصدد لم يُثمر شيئاً.

على هذا النحو، لم يكن أمامي إلا البحث عن هذه الفقرات التي نقلها المؤلف حرفياً من الترجمة الإنكليزية في منتخبات رستم وأبو شقرا من الجواب، أو في مشهد العيان، وقد عثرتُ في المنتخبات على جُل النصوص التي لا تتعلق بالفتنة الطائفية مباشرة، بل بموضوعات أخرى من قبيل حصار إبراهيم باشا لعكا، أو فقدان الشيوخ في جبل لبنان مكانتهم وامتيازاتهم، وما يجري مجرى ذلك. وأما مشهد العيان، فلم أجد فيه جُل هذه الفقرات، فكأنها حُذفت منه عمداً. وأما القليل الذي وجدته فيه، فألفيتُ النص فيها مناقضاً للترجمة الإنكليزية كل المناقضة؛ فلا يُعقل أن يكون كلا النصين صدر عن المؤلف نفسه. ومع أنني وقفتُ، من خلال المقارنة بين تلك النصوص، على الرسالة التي أراد مَهْدُباً الكتاب - وفق ادعائهما - إيرادها على لسان مشاقة، إلا أن لا مجالاً للخوض فيها هنا.

وفي أي حال، فقد أُلْجِئني ذلك إلى معاودة مصنّفاتٍ مُشاقّة المبكرة، مثل رسالته المسماة الدليل إلى طاعة الإنجيل، وعثرتُ فيها بالفعل على فقرة نَقَلَهَا مُشاقّة بنصّها في الجواب بعد تصوّف يسير. فضلاً عن ذلك عاودت المصادر التي نَقَلت عن الجواب مثل خطط الشام لمحمد كرد علي. ولحسن الحظ، عثرتُ فيه على بعض الفقرات المتطابقة التي نقلها المؤلف عن الترجمة الإنكليزية للجواب، فأثبتُّها بلفظها - بعد المقارنة والتحقق - ونبّهت على ذلك في الحواشي، كلٌّ في موضعه. ومع ذلك، ظلت مقاطع قليلة جدًّا، ولا سيما في الخاتمة، لم يكن ثمّ مناص من ترجمة نصّها من الإنكليزية إلى العربية مباشرة. وقد نبّهت في الحواشي - كلٌّ في موضعه - أنها من ترجمتي، وليست من لفظ مُشاقّة.

وأما الحَظْبُ في النصوص التي ترجمها المؤلف من العربية إلى الإنكليزية من المصادر الأدبية - من قبيل مشاهد وأحداث دمشقية للأسطواني، أو كُنَّاش الحسيبي، أو حلية البشر للبيطار، أو تراجم مشاهير الشرق لزيدان، أو الروضة الغنّاء للقساطلي - فكان يسيراً. وفي أثناء إعادة هذه النصوص إلى لفظ مؤلّفها بالعربية، عاودتُ الطبعات نفسها التي عاودها المؤلف. وأما النصوص التي اعتمد المؤلف على ترجمات إنكليزية لها - مثل تاريخ أنطون ضاهر العقيلي [ثورة وفتنة في لبنان: صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من 1841 إلى 1873] الذي اعتمد المؤلف فيه على ترجمة مالكوم كير (Malcolm Kerr) الصادرة عن الجامعة الأميركية في بيروت 1959 - فانطبق عليها الأمر نفسه من إعادة النص إلى ألفاظ مؤلّفه، اعتماداً على الطبعات العربية.

تجدد الإشارة إلى أنني واجهتني في سياق هذه العملية من "الاسترداد" بعض التحديات المتعلقة بالمصطلح المعاصر بصفة خاصة. عند الحديث عن مؤلف هذا الكتاب خاصة، فإنه بوصفه مترجماً انحاز إلى خيار ترجمة المصطلحات العربية-العثمانية الأصلية التي وردت في مصادره التي عاودها، في أثناء تأليفه هذا الكتاب، إلى مصطلحات حديثة باللغة الإنكليزية، على نحو ممنهَج، مثله مثل كثير من المؤلفين الذين يترجمون المصطلحات بطريقة تقرب الفهم للقراء الذين لا يتّهمون إلى الثقافة التي يتناولها الكتاب. ومن ذلك، على سبيل المثال، "مأمور البوليتيكا" التي ترجمها إلى (Political attaché) بمعنى "الملحق أو المستشار السياسي"؛ وكذلك "يوزباشي الضبّطية" التي رأى ترجمتها إلى "ضابط (نقيب) الشرطة" (Captain of the Police)،

و"المغاربية" - وهم رجال الأمير عبد القادر، كما وُصفوا في المصادر المعاصرة - التي رأى ترجمتها إلى "الجزائريين" (Algerians)؛ و"أمير آلاي" التي رأى ترجمتها إلى "الجنرال" (General)، والدفتردار أو المحاسبجي التي ترجمها إلى "أمين الخزانة" (Treasurer)، و"المجلس فوق العادة" التي ترجمها إلى "المحكمة الاستثنائية" (Extraordinary Tribunal)... وغير ذلك. هكذا لم ير المؤلف فائدة في إثقال نصه بذكر المصطلحات العربية-التركية الأصلية التي ترجمها إلى الإنكليزية عند ورودها في السياق أوّل مرة، مكتفياً بترجمتها مباشرة. ولم يشُد المؤلف عن هذه القاعدة إلا نادراً، ومن ذلك على سبيل المثال، اصطلاح "الآغوات" (وهم قادة الفصائل العسكرية)، و"الباشي بُزق" (وهم العساكر العونية، أو الجنود غير النظاميين)، فرسمها بالعربية بالحرف اللاتيني (Transliteration) عند ذكرها أول مرة في سياق سرده. وترجمهُ المؤلف لهذه الاصطلاحات دقيقةً، ولا غبار عليها في حدّ نفسها، لكنها بعيدة عن روح العصر وثقافته الأصلية (Etic) في التحليل الأخير. بعبارة أخرى: توخى المؤلف - لأسباب نفهمها - التقريب في الاصطلاح. بينما رأيتُ استرداد هذه المصطلحات المعاصرة - ولا سيما أن مصادر المؤلف كلها تقريباً قد توافرت لي - لثراعى الخصوصية الثقافية للعصر وروحه من خلال ردّ المصطلح إلى أصله. بعبارة أخرى: توخى المترجم التأصيل. وعلى هذا النحو ترجمتُ (political attaché) إلى "مأمور البولتيكا"، تماماً كما وردت في الوثائق التي اعتمد عليها المؤلف، وليس "الملحق السياسي"... وعلى هذا فقس.

كذلك، اقتضت هذه العملية من "الاسترداد" استيعاب الفقرات والاقتراسات النصيّة التي ترجمها المؤلف من أصولها حرفياً، وأوردها بين علامتي تنصيص في سياق سرده، في هذه الترجمة العربية من أصولها، وعلى علّاتها، بدءاً من شيوع الأعجمي الدخيل (ولا سيما من اللغة التركية) فيها، ومروراً بالركاكة في أساليب التعبير، وانتهاء باللحن الفاحش في اللغة، وهي سمات اتسمت بها أساليب معظم كتّاب القرن التاسع عشر في الكتابة بالعربية؛ حتى إن بعضها كُتِب بالعامية الشامية المحضّة (كُنَّاش الحسيبي على سبيل المثال). وعلى هذا النحو، أوردتها كما وردت في أصولها، مكتفياً بوضع بعض الملحوظات التفسيرية من باب توضيح المعنى، أو المقصد بين معكوفين في ثنایا النص.

أخيرًا، اقتضت هذه العملية من "الاسترداد" أيضًا توخي الدقة في مراعاة الاصطلاح للسياق التاريخي، وإن أدى ذلك إلى ترجمة اللفظة الإنكليزية نفسها إلى مقابلين بالعربية. ومن ذلك، على سبيل المثال، تصرّف المترجم في ترجمة لفظة Province إلى "إيالة"، إذا وردت في سياق ما قبل صدور قانون الإصلاح الإقليمي (Vilâyet Nizamnâmesi) الصادر في عام 1864، وإلى "ولاية"، إذا وردت في سياق الحديث عن حقبة ما بعد صدور هذا القانون المشار إليه، حيث أبطّل هذا القانون مسمى "الإيالة" (Eyalet) العتيق، واستبدل به مصطلح "ولاية" (Vilâyet) رسميًا.

وبينما كنْتُ منهمكًا في ترجمة هذا الكتاب في أواخر عام 2024، أخذت الأحداث تتطور بوتيرة متسارعة في سورية، وأفضى الأمر إلى سقوط نظام بشار الأسد. عندئذ رأى المؤلف ضرورة إجراء تغييرات في مقدمته للكتاب، لتواكب الأحداث. ومع ذلك، جاءت التغييرات التي أحدثها المؤلف في مقدمته الأصلية لهذا الكتاب طفيفة، اقتصرَت على الفقرات الأخيرة منها. وفي أي حال، فقد أضفتُ الجمل التي زادها المؤلف على نص المقدمة الأصلية للكتاب بين معكوفين، منبِّهاً في الحواشي على أنها زيادات رأى المؤلف إضافتها إلى النص. وأما الجمل التي استبدل بها غيرها، فقد أفحمتُ الجمل الجديدة على النص الأصلي بين معكوفين أيضًا، ووضعتُ النص - كما ورد في المقدمة الأصلية للكتاب - في الحواشي.

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

شهداء دمشق وطفاتها

ينطلق موكب صغير في 10 تموز/ يوليو من كل عام شاقاً طريقه عبر الأزقة الضيقة في حارة النصارى بدمشق العتيقة. ويحمل السائرون في هذا الموكب لافتات تُكرِّم ثمانية من الرهبان الفرنسيّسكان، وثلاثة إخوة من المسيحيين الموارنة، لقوا مصارعهم جميعاً في مذبحه المسيحيين في عام 1860. ظل أولئك نفر الأحد عشر يُعرفون بـ "شهداء دمشق" على مدى أكثر من قرن.

وقع الهجوم على "دير الأرض المقدسة" (Terra Santa Monastery) في الليلة الأولى من أحداث دمشق، أي بين 9 و10 تموز/ يوليو 1860. فما كان من الرهبان الفرنسيّسكان إلا أن أغلقوا بوابة الدير في وجه الحشود العنيفة التي اجتاحت باب توما بهدف القتل، والنهب، والحرق؛ ظناً منهم أن الدهماء لن يجرؤوا على مهاجمة مقارّ الإرساليات الأجنبية، وأبوا الخروج إلى ملاذ آمن عندما أرسل القنصل الفرنسي بعض المحاربين المغاربة لإنقاذهم، واصطحبهم إلى حيث مأمنهم. وعلى هذا النحو، حزم أولئك الرهبان أمرهم، وقرروا التحصن بأسوار الدير، والاحتماء ببوابته المتينة، ريثما تهدأ هذه العاصفة؛ حتى إنهم قبلوا إيواء الإخوة الثلاثة من بني المسابكي، وكانوا مقرّبين من طائفة الفرنسيّسكان بصفة خاصة، ظناً منهم أنهم يُجبرونهم بذلك، ولم يعلموا أنهم جميعاً لمدرّكون.

فلما ألقى الليل سدوله، أخذت حارة النصارى المحترقة تتألق متوهجة بنيران جهنمية من أثر أعمال العنف في اليوم السابق. وأضاءت تلك النيران طريق الدهماء في حارة النصارى في ظلمات الليل البهيم. وما لبث عددٌ منهم أن تجمّع خارج أسوار

الدير وما أشرقت شمس يوم 10 تموز/ يوليو بعد، وقد سَوَّلت لهم أنفسهم نهب هذا الدير الثري. فلما أوشكت بوابة الدير على الانهيار تحت ضغط المهاجمين، أدرك الرهبان أنهم مقتولون لا محالة. عندئذ، هرعوا إلى كنيسة الدير لتناول القربان في طقس أخير من جهة، ولحماية القربان المقدس الذي يعتقد الكاثوليك أنه خبز يتحول إلى جسد المسيح، خشية أن تدنَّسه الغوغاء المتعطشة إلى سفك الدماء من جهة أخرى.

ولمّا نجح المحتشدون أخيراً في اقتحام بوابة الدير، عثروا على الرجال الأحد عشر مجتمعين في كنيسة الدير. وسجّلت المصادر المسيحية المعاصرة أن أفراد الغوغاء أخذوا يتسلون بقرع أجراس الكنيسة، وهم يشرعون في ذبح الرهبان. هكذا قُطع رأس رئيس الدير عند المذبح. وحاول آخر الفرار إلا أنه طُورِد، وقُتل في الشارع. وفي الأخير نجا رجل واحد فقط من المذبحة، هو شخص مسيحي عامِّي يُقال له مِترى قرة، فصار بذلك شاهد العيان الوحيد على الهجوم على "دير الأرض المقدسة".

ولمّا طالب الدهماء فرانسيس المسابكي - وكان أحد الإخوة الموارنة الثلاثة - بالدخول في الإسلام إنقاذاً لحياته، أبى قائلاً: "إنني مسيحي، ولن أترك ديني، وعلى دين المسيح أموت". وعلى هذا النحو، قُتل فرانسيس، وأخواه، والرهبان الفرنسيون الثمانية جميعاً. وبعد أن نُهب الدير، أُضِرَّت فيه النيران. ثم مالَبث الدهماء أن خرجوا منه، وانشغلوا ببحثهم المحموم عن ضحايا جدد⁽¹⁾.

استمرت أعمال العنف على قدم وساق سبعة أيام أُخر، مودية بحياة آلاف المسيحيين. بيد أن الرجال الأحد عشر الذين قُتلوا في دير الفرنسيون خاصة،

(1) هناك عدد من الروايات المسيحية العائدة إلى ستينيات القرن التاسع عشر التي سجّلت التفاصيل المتعلقة بالهجوم على دير الأرض المقدسة. وقد ذكر المؤلف المسيحي المجهول لـ كتاب الأحران - الذي وقع الفراغ منه في آذار/ مارس 1864 - نبأ استشهاد الرجال الأحد عشر، وأشار إلى أن مِترى قرة هو مصدر روايته عن الهجوم على الدير. يُنظر: مؤلف مجهول، كتاب الأحران، مخطوطة بمكتبة يافث، الجامعة الأميركية في بيروت، MS 956.9 K62kA، ورقة 91-92. وروى المؤلف المجهول صاحب "نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشّام" قصة رفض فرانسيس المسابكي الدخول في الإسلام إنقاذاً لحياته. يُنظر: مؤلف مجهول [لويس شيخو]، "نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشّام (1840-1862)"، المشرق، مج 24 (1926)، ص 921-922. يُقارن أيضًا:

Mikhail Mishaqa, *Murder, Mayhem, Pillage, and Plunder: The History of the Lebanon in the 18th and 19th Centuries*, Wheeler M. Thackston Jr. (trans.) (Albany: State University of New York Press, 1988), p. 250.

تركوا أثرًا لا يمحي في نفوس مسيحيي دمشق بوصفهم شهداء قُتلوا في سبيل دينهم. وعندما استُعيد النظام، واستتب الأمن، وتمكّن المسيحيون من العودة إلى حارتهم، طفق الناجون منهم يجمعون عظام الرجال الأحد عشر، ودفنوها معًا في قبر واحد. وفي عام 1866، أعاد الفرنسيون بناء كنيستهم، وألحقوا بها مصلى صغيرًا، خصصوه للرهبان الذين لقوا مصارعهم إبان أحداث دمشق. ثم في عام 1878، ما لبثت أن لفتت طائفة الفرنسيين، والكنيسة المارونية انتباه الفاتيكان إلى واقعة استشهاد الرجال الأحد عشر. وعلى هذا النحو، طُوب البابا بيوس الحادي عشر (Pius XI) شهداء دمشق في عام 1926. وعلى هذا النحو، اعتاد المسيحيون في دمشق إحياء ذكرى تضحية الشهداء الأحد عشر في دمشق سنويًا من خلال موكب صغير يخرج في ذكرى استشهادهم في 10 تموز/ يوليو.

يجتاز هذا الموكب السنوي بالكنيسة المارونية في دمشق حيث دُفنت رُفات الإخوة الثلاثة من بني المسابكي - وهم فرانسيس، وعبد المعطي، وروفائيل - في كنيسة خاصة. كان فرانسيس أسنَّ إخوته، وكان يبلغ من العمر سبعين عامًا عندما قُتل. وكان يتاجر في الحرير، وكان أبًا لثمانية أبناء. زد على ذلك أنه كان رجلًا له مكانة بين المسيحيين في دمشق. وأما عبد المعطي، فكان تاجرًا موسرًا، وأبًا لخمس أبناء، وكان يُدرّس اللغة العربية في مدرسة الرهبان الفرنسيين. وأما روفائيل، فكان عازبًا، يتردد إلى الكنيسة، ويحيا حياة الزهاد.

في أي حال، فإن مسيرة هذا الموكب الصغير تنتهي عند دير الفرنسيين الذي يشتمل على مصلى أنشئ تخليدًا لذكرى الرهبان الذين قتلوا. وهناك عُُلِّقت أيقونة تصوّر ثمانية رجال يسجدون للصليب، وقد أحاطت برؤوسهم هالات نورانية على مذبح متقن الصنع من الرخام الأبيض. وتحت هذا المذبح، وُضعت عظام الشهداء المستخرجة من المقبرة الجماعية التي دُفنت فيها، في صندوق زجاجي كبير.

كان جميع الرهبان الفرنسيين من الإسبان، خلا واحدًا منهم فقط. وكانت لاثنتين منهم خبرة سنوات طويلة في سورية، والأرض المقدسة. فكان مانويل رويز لوبيز (Manuel Ruiz López) (المولود في بورغوس (Burgos)، في عام 1804) مستعربًا، عاش وعمل ما يقرب من عقدين في بلاد الشام. وشغل منصب رئيس الدير. وأقام كارميلو فولتا بانيولز (Carmelo Bolta Bañuls) (المولود في بلنسية (Valencia) في

عام 1803) في سورية وفلسطين ثلاثة عقود، وعمل قسًا، ومدرسًا للغة العربية في دمشق. أما إنغلبرت كولاند (Engelbert Kolland) (المولود في سالزبورغ (Salzburg) في عام 1827)، فكان نمساويًا، قضى خمس سنوات بين القدس ودمشق قبيل اندلاع أحداث عام 1860.

وأما بقية الرهبان الثمانية، فكانوا من الوافدين الجدد على دمشق؛ بل الحقّ أنهم لم يُلحقوا بالدير بوصفهم رهبانًا فيه إلا في شباط/فبراير 1859. وعلى هذا النحو، سافر نيكانور أسكانيو سوريا (Nicanor Ascanio Soria) (المولود في مدريد في عام 1814) إلى دمشق بعد عقدين من الخدمة الكهنوتية في إسبانيا. في حين رُسم نيكولاس ماريا ألبيركا توريس (Nicolás María Alberca Torres) (المولود في قرطبة في عام 1830) راهبًا في عام 1858. ورُسم بيدرو نولاسكو سولر مينديز (Pedro Nolasco Soler Méndez) (المولود في مرسية (Murcia) في عام 1827) راهبًا في عام 1857. وسافر كلاهما إلى دمشق ليتعلّما اللغة العربية. فضلًا عنهم، كان هناك اثنان آخران من العمال العاديين لم يدخلوا في طائفة الفرنسيسكان، أو يُرسمًا راهبين قط، هما فرانسيسكو بينازو بينالفر (Francisco Pinazo Peñalver) (المولود في بلنسية عام 1802) الذي خدم بوصفه "قندلفت" (2) (Sacristan)، وخوان جاكوب فرنانديز (Juan Jacob Fernández) (المولود في أورنسي (Ourense) في عام 1808) الذي كان يخدم بوصفه طبّاخًا للرهبان (3).

ومهما يكن من أمر، فقد ظلّ شهداء دمشق، منذ تطويهم في عام 1926، يُذكرون في الداخل، ويُقابلون بالتجاهل في الخارج، تماشيًا مع تراجع التركيز على دمشق، وعلى مسيحيتها، على الصعيد الدولي. ومع ذلك، فقد أدت سنوات من الحرب الأهلية التي أشعلت فتيلها انتفاضات "الربيع العربي" الشعبية في عام 2011 ضد الحكم القمعي والمستبد للرئيس السوري بشار الأسد ودولته البعثية إلى عودة سورية إلى منزلتها التي كانت لها في الشؤون الإقليمية والعالمية، إلى حد ما، بحلول

(2) رتبة كنسية، يناط بصاحبها صيانة الكنيسة، وحفظ الأدوات المستخدمة في الطقوس، فضلًا عن تعمير القناديل، وما يجري مجرى ذلك. (المترجم)

(3) Ordo Fratrum Minorum, "Canonization of the Blessed Martyrs of Damascus", 15/10/2024, at: <https://acr.ps/hBy2Sr4>; J. J. Ziegler, "'The Glorious Palms of Martyrs': On the Damascus Martyrs of 1860," *The Catholic World Report*, 8/9/2024, at: <https://acr.ps/hBy2T5P>